أمنيات مصلوبة على عتبة الانتظار

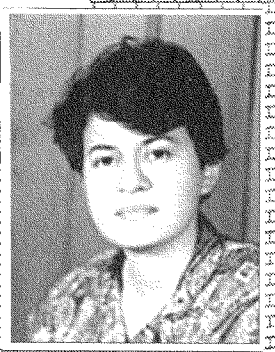

نادية غازي العزاوي
(أستاذة جامعية)

وكيف يعيش العاقل في الزمان المجنون؟

القاضي الفاضل

ـ ١ ـ

أتَعْلم، أم أنت لا تَعْلم، أنّ الحروب والحصارات اللعينة حينَ تختصر الوجودَ العظيمَ للإنسان ـ كلّ وجوده ـ في حاجتيْن بائستيْن: إشباع الجوع وطمأنة الخوف، وتمحو المتعَ المؤنِّثةَ لذلك الوجود لأنّها تغدو ضرباً من الترف الكماليّ الزائد، فإنّما تفرض عليك مقايضةً جائرةً: تبيعك عُريَ الضرورةِ والاستثنائيّة في أشدّ حالاتها تقشّفاً وشُحّاً، وتَسْلبك بذخَ الحريّة والمسرّات الصغيرة والأحلام المشتهاة التي لا تملك إلاّ أن تؤجّلها... حتى صِرْتَ تَخشى في النهاية على هذا الركام المؤجّل أن يغطّي خارطةَ حياتك ولم يُبقِ لك من العمر إلاّ فسحةً ضيّقةً.

متعٌ صغيرةٌ جداً تُعَدّ عند مَنْ هم في الضفّة المُطلقَة غيرِ المحاصرة مِنْ أتفه الحقوق ولكنّها عليك ـ ولمنطقٍ لا تفهمه ـ ترفٌ لا موجب له... مُتعٌ من قبيل: كتابٍ منشورٍ حديثاً يصلك في البريد؛ وكانت دورُ النشر، قبل تغيّر المقاييس، تحسب للقارئ العراقيّ حسابَهُ، وتقتطع له الحصة الأكبر في التسويق. يا هؤلاء! مازلنا نقرأ، لأنّ مرض القراءة فينا مرضٌ مُزمن لم تستطع الأزماتُ كلّها أن تداوينا منه... أو من قبيل مشاركةٍ في مؤتمر دوليّ يُعقَد في مكانٍ مّا على هذه الأرض في تخصّصك المعرفيّ الدقيق... أو سيارةٍ صغيرة تشتريها بعد سنين من الخدمة والعمل المثابرة... أو علبةِ سكائرٍ من النوع الفاخر الذي كنتَ تدخّنه من قبل... أو زيارةٍ مع صديقك إلى واحد من المطاعم الفارهة التي اعتدتَ أنْ ترتادها سابقاً... أو ثوبٍ جديد تشتريه دون أن يوجعك ثمنُه (وكان لنا ذوقٌ راقٍ في متابعة الموضات، تشي بذلك ثيابُنا القديمة التي ما زالت تحتفظ ببقايا جمالٍ قديمٍ كعجوز حسناء)... أو ضجعةٍ هانئة على سريرك دون أن تسلّ الكوابيسُ والهواجسُ سيوفَها عليك... أو ضحكةٍ صافيةٍ من قلبك لا تشوبها مراراتٌ دفينةٌ... أو ... أو....

قال أحدُ شعرائنا الشباب (من مواليد الستينيّات) في ملتقى شعريّ: «لم يُسْعِفني الظَّرفُ في مراهقتي وسنواتِ شبابي الأولى في أن اتغزّل، لأنّ قصيدتي كانت مشغولةً بالبندقيّة والأفكار الوطنيّة والحماسيّة. كنتُ اشتهي أن أقول عن حبيبتي اشياء كثيرة، عن وجهها وقسمات جسدها وضفائرها. وها قد شارفتُ على الأربعين وما زالت الأمنيةُ مقموعةً؛ فأنا اليوم محاصَرٌ بأوجاعٍ صميميّة عطفتْ مساراتِ الرؤى والقصائد إلى اتجاهاتٍ بعيدة، ولا أملك ثانيةً إلاّ أن أؤجّل ذلك ربّما إلى ما بعد الخمسين».

ـ ٢ ـ

أتَعْلَمُ مديات الصراع الفاجع الذي يعيشه المثقّفُ في انشطاره وتمزّقه بين مطامح معرفيّةٍ وثقافيّةٍ يسعى إلى تحقيقها، وبين أعباءِ لقمةِ الخبز تنهش بداخله وتطوِّح بوعيه وكلّ قناعاته؟ يقول أحمد خلف: «ربّما لا تتبادر إلى ذهنك الآن الكيفيّةُ التي سأبيع فيها الكتب، أيْ أنْ اتحوّل واغيّر من طبيعتي، من مبدعٍ إلى بائع؛ إنّه تبديلُ كينونةٍ بالتمام».

انزلق البعضُ، وهرب البعضُ، ومازال البعضُ الآخر على شفا الهاوية متماسكاً يراقب، وقد تحشرج وتعسّر صوتُ الإصرار في فمه، وهو يردّد مع «قدّيس» خليل الخوري:

وعندما يضيع كلُّ شيء
يظلّ لك
أنّك لا بعتَ ولا اشتريتْ....
أنّك ابصرْتَ وما اشتهيتْ

...متمسّكاً بخيوطٍ باقيةٍ من رغبةٍ في المواصلة والكتابة التي تعينه على

تحسّس كيانه [ما أيسر أن نردّد بنبرة شعاريّة جاهزة: «أنا أكتب إذن أنا موجود»؛ ولكنّ المأزق المأساويّ الجارف يكمن في أن أكون موجوداً بشكلٍ مّا وأعي غيابَ جدوى الكتابة وانطفاءَ بريقها في داخلي]. تقول لطفيّة الدليمي: «كتابتي تتمّ الآن في عراء الوجع، العراء الذي يعبق بروائح الموت... نكتب ونحن نتلظّى في الحصار والكآبات، ونتصدّى لكثيرٍ من الغوايات التي تغازل عوزَ الكثيرين منّا في محاولة استبدال الروح بمسكوكاتٍ أو أوراقٍ نقديّة أو مقايضتها بجوازات سفر أو وثائق تجعل من العراقيّ المهاجِر إلى النعيم الموهوم شخصاً من الدرجة الثالثة في مخيّمات اللجوء والتسوّل»...

ـ ٣ ـ

أَتَعْلَمُ أنّ لافتات النعي السّود تكاد تسدّ علينا عيونَ الشمس في كلّ صباح، وهي توشِّح جدرانَ جامعاتنا ومؤسساتنا معلنةً عن مواكبَ لا حصر لها من مُبدِعينا رحلوا قبل الأوان واندثرتْ معهم مشاريعُ وأفكارٌ واعدةٌ... لافتات حفظنا كلماتها الصُمّ: «انتقل إلى رحمة اللّه بنوبة قلبيّة مفاجئة...»؟ [قال لي أحدُ الزملاء يوماً بسخرية سوداء: كأنّ النوبات القلبيّة تتنافس على اختطاف أساتذة جامعاتنا؟] ولعلك لا تعلم أنّ بعضهم حين مات لم يكن لدى أسرته ما يكفي لدفنه، لأنّ موته ـ كما قيل ـ جاء مفاجئاً، وكأنّ الموت صار عندنا بحاجة إلى مراسيم تمهيديّة تعلن عن مَقْدَمِه كي تتاح للآخرين فرصةُ التهيّؤ له.

ـ ٤ ـ

أتعلمُ أنّ فراق الأحبّة المهاجرين سيظلّ الأوجعَ عندنا؟ فتجربة الهجرة جديدةٌ علينا، لم نستطع بعدُ أن نَألفها أو نستسيغها، ولن نفعل مهما حصل، بسبب كمّ الحنين والعواطف الساكنة في أعماقنا والتي تشدّنا في ليالي الغربة إلى أدقّ التفصيلات والقسمات المحليّة: الشوارع، المقاهي، رائحة الخبز والتنّور، استكان الشاي، دورة أسطوانة تدور معها أغنيةٌ عزيزة علينا لناظم أو سليمة أو زهور حسين...، نُصُب الحريّة، تمثال لجهرمانة، نواعير عانة، شناشيل البصرة... ولن تنجح كلُّ غوايات الهدايا الثمينة والنقود الباردة المُرسَلة من أحبّتنا ـ حتى في أعسر الظروف ـ في أن تُسْكِتَ لذع الذكريات ونبرات العتاب الساخنة. يخاطِب وارد بدر السالم صديقَ طفولته المهاجِر: «اشربْ من طاسة أيامك، أيّها الهارب الجميل، فقد نلتقي بعد سنوات الحريق ونلتقي كفّانا. وأريدك أن تتذكّر فقط صفحة المراثي وصفحة الأمل، أيّها الصديق المعفّر بالثلج وعَبَق الحانات. لقد وصلتني قمصانُ الحرير. فهل وصلتك أبوذيّتي؟».

ـ ٥ ـ

أَتَعْلم مدى حبّنا للحياة؟ وأنّنا قد نفعل المحال لنظفر بلحظة حبٍّ تشدّنا إلى نُسغ أبديّ العطاءِ، تماماً كما أَيْنَعَ حبُّ المعرّي لها على قضبان عزلته، وأعياه الفكاكُ من سحرها:

لو أنكِ العِرسُ أوقعتُ الطلاقَ بها
لكنّكِ الأمّ ما لي عنكِ مُنْصَرَفُ!

فقد علّمنا جذرُنا التموزيُّ الأوّلُ دروسَ الانبعاث والتجدّد، وعلّمَنا فرْعنا «السيّابيُّ» المورِقُ أن نولِّدَ من لحظة الموت لحظةَ حياة:

جيكور ستولدُ من جُرْحي
مِنْ غُصّة موتي، مِنْ ناري
سيفيض البيدرُ بالقمح
والجرنُ سيضحك للصبح!

وقد لا تعلمُ أنّ طالبنا الجامعيّ الشاحبَ الوجهِ من جوعٍ وقلق (بعضهم يُمضي اليوم كلّه بلفّة فلافل) ما زال يقول الشعرَ ويَحْفظ روائعَ المتنبي ودرويش والجواهريّ وأمل دنقل وخليل حاوي و...، ويحتفي بذكراهم بطريقة خاصة. ففي ذكرى السيّاب لهذا العام مثلاً، أعدّتِ الجامعةُ مهرجاناً شعريّاً للطلاّب، قرأ فيه بعضُ الطلبة نصوصاً واعدة، فقرأ محمد راضي شارف (ماجستير):

في هذا الوقت المُتصادَر
من عمر النرجس:
لا حبل كي أتسلّق أو كفّ
لا باب يُفتَح أو يُغلق
أو حتى صوت يسألني
فأجيب بصوت مشلول
ادخل من ثقب الباب
إلى قلبي
انتظر الفرح الآتي
كي لا يأتي.

وقرأ عارف الساعديّ (المرحلة الثالثة):

يحلّقون
يبتكرون الشمسَ في منطقة أخرى
ويزرعون القمر الفضيَّ حولها
ويحرثون الأفق الممتدَّ بامتدادهم
ويبذرون نجمةً واحدةً.

وقد ألحّوا على الكلية في أن تحتوي مواهبَهم المتوثّبةَ في جريدةٍ أو مجلة، فكان مولدُ نشرةٍ جداريّةٍ دوريّةٍ ـ متواضعةٍ في طباعتها، نعم، ولكنّها عظيمةٌ في تطلّعاتها ودلالاتها، يضمّها عنوان يعانق المستقبل عناقاً حداثيّاً: **أدب ٩٩!**

ـ ٦ ـ

أخي .... أتمنى أن لا يكون كلُّ ما أكتبه إليك «حبراً على ورق» ـ وهذا هو عنوان المعرض الأخير للمُبدع علاء بشير. فما أحوجني إلى صوتِك يكون معي لنتخطّى المحنة معاً! □